— ١ —

من خلال حديد الشرفة تسلل قبس أحمر تفتحت أطرافه عن زهور جميلة لونها خليط من الأبيض الناصع والأزرق المشرب بالحمرة . ليستقر فوق مقعد من قماش .

فى مواجهة المقعد ، علق على الحائط قفص بداخله عصفور يقفز مرتقبا فى حبور للصبح الجديد .

من باب الشرفة أطل فتى يمتلىء حيوية . وتفيض قسماته بالبشر جلس على المقعد ، وتطلعت عيناه الى العصفور ، وابتسم فى حب ، وهمس بحادثه .

— انه عصفورى الحبيب . لقد آن لك أن تنطلق من قفصك الى الحياة الرحبة لتحقق ارادتك . انه عهد قطعته على نفسى أن أدعك طليقا فور انتهائى من دراستى . وها أنا قد أتممتها بنجاح . واى نجاح . ثانى دفعتى . أى أننى سأعين معيدا . فلقد عين الثلاث الأول فى العام الماضى معيدين — وتنهد فى سعادة — نعم سأصبح معيدا وتتاح لى الفرصة لكى أدرس . وأدرس . وأوسع ..

وشرد بصر الفتى . واستحال همسه الى صمت . وغامت عيناه بالرؤى .

فاذا به جالس الى مكتبه يبحث . ويثقب . ويستخلص معارف جديدة تحمله يستمد من ما يبذل من جهد . فيستنير . ويتعمق .. حتى تكشفت له كل الطلاسم التى حيرتاساتذته وأوقفتهم أمامها متسائلين فى عجز عن مسبباتها !

ثم يقصر به خياله فاذا به يحمل رسالته لتناقش أمام لجنة من فطاحل العلماء الذين جلسوا منصتين له فى اعجاب ، وقد بهرهم ما يسوق من حديث . حتى ان أستاذه القديم نهض متجها اليه ، وراح يشد على يده مهنئا وهو يردد فى اعتزاز .

بقلم
فخرى فايد

— نعم التلميذ انت . رائع . رائع يا أستاذ . بل أكثر من رائع . فتتلاحق دقات قلبه ، وتغمر النفس سعادة لاحد لها . يتوقف أمامها خياله لا يريد أن يغادرها دون أن يستخلص منها أقصى متعة . فيروح يستعيد الصورة مرة . ومرة ! فاذ بالأستاذ ينهض . واذ باليد تمتد اليه . واذ بالفم يحيد .

— رائع يا أستاذ . رائع . بل أكثر من رائع .

وتتساقط كلمة أستاذ بين حناياه لتغدقها بحذر لذيذ . فغاية الأمل أن يكون أستاذا .

ولكن هل يرتضى الطموح عند حدود معينة ؟! ..

لا . ابدا . انه لن يتوقف . سيمضي دائما الى آفاق ارحب وأسمى .

وسرعان ما يستجيب خيال الفتى . فاذا بواجهات المكتبات تردان بكتبه . واذا به صاحب مذهب محدد ، ومدرسة معروفة . واذا بالبيئة العلمية تتخاطفه ، تتدعوه لمحفلاتها ، وتقيم له الندوات . بل وتصدر عنه كتبا عديدة تحكي قصة نجاحه .

ويعلق الفتى على صوت امه ينساب من داخل البيت مستفسرا .

ـ الى تذهب الى كليتك يا بني لتعرف ما صار اليه أمرك . تلك أيام لا تفعل شيئا غير الجلوس الى عصفورك واطعامه

ـ ٢ ـ

كف العصفور عن تحليقه داخل القفص . وتشبثت أظافره بالحديد البارد . ودعك الفتى عينيه . وهز رأسه مرات ليفيق ثم تمتم .

ـ انى ذاهب لنوى يا أماه .

وقام من مجلسه . ووقف قبالة القفص ، ومد أصبعه من خلال القضبان محاولا أن يلمس العصفور . لكنه لم يستطع . فلقد حال الحديد بينه وما يريد ، فتنهد .

ـ عليك يا عصفوري أن تنتظر قليلا حتى اطمئن واعرف الى اين ستمضي . نعم يجب أن تنتظر اياما أخر . فمصيرك في الواقع لم يزل مجهولاً . ومن الخرق ان أدعك تمضي هكذا دون استناد الى واقع مادي يطمئنني على مستقبلك حتى لا تروح تتخبط وسط متاهات لا تحدها حدود . فتملأ قلبك بالمرارة والأسى . فما أقسى أن تشعر بائسا تضرب في الحياة بلا هدف . في حين تتساقط لحظات وجودنا في رتابة كالعدم فتنتهي وكأننا لم نكن لمتمتعنا بباطن الأرض في صور بلا شواهد .

وعلقت وجه الفتى سحابة حزن . ثم استدار مبتعدا

ومر الوقت ..

وبدأت الشمس تغوص مختفية في الأفق الغربي ، فانكمش العصفور يرتجف بصوت خفيض أشبه الوداع . وانفتح باب الشرفة على الفتى . الذي انهار فوق المقعد ، ونظر الى العصفور في حزن ثم غطى وجهه بكفيه وراح يتمتم في هبوط .

ـ ليس لك الا أن تموت . ليس لك الا أن تموت .

وبعد لحظات . رفع وجهه . وتطلعت المكنسة في قاع القفص ، وتطرت كلماته عيناه وقد اشرقت بالدمع الى العصفور مرارة

ـ لقد انتهى كل شيء .

وعاد يدفن وجهه بين كفيه لقد انتهى كل شيء . لن يحتفلوا معيدين هذا العام .

فجأة سقى ذهنه تساؤل هل يدعو هذا للياس ؟ .

تحرك العصفور فنفض ريشه ، بحق لم اليأس ومجالات الدراسة مفتوحة ، ومجالات العمل أوسع . فلم لا ينزل الى الحياة العملية ليطبق افكاره ويحققها ! .

ورأى الفتى نفسه فيما يرى النائم ، وقد وقف في احد المعامل يحلل - ويحسر . ويستنبط . وكان يرتدي معطفا ابيضا ... ابيض كسحابة صيف .

— ٣ —

جلس الفتى في سريره يقلب صفحات الجرائد :

« مطلوب كاتب حسابات متمرن » .
« شركة تطلب مشرفا اجتماعيا » .
« مكتب كبير بحاجة لسعاة » .
« مطلوب مترجم »
« امين مخزن » .
« مندوبين بالعمولة » ..
« فراشون » .

— أليس هناك من يحتاج الى مفكر ؟ ..

ويقلب الفتى الصفحة ..
ثم يبدل الجريدة ..
وتتبدل الأيام ..
وتسأله امه : الم تعثر على عمل يناسبك بعد ؟ .

— جميعهم يريدون آلات ، أجساد لا عقول .

— ولكن يجب ان تعمل يا بني .

— مستحيل ان اقبل مثل تلك الأعمال . والا فلم أجهدت نفسي في الدرس والتحصيل ؟ .

وتشفق الأم عليه فتبتلع ما كانت تود أن تقول . تسكت لحظات ، ثم تفتتح بأن عليها أن تقول . يجب ..

— يا بني أن ... انه صاحب البيت . انه يطالبنا بالايجار . كذا المقال والجرار كل يريد ماله . ومعاش أبيك الذي كنت تناله انقطع منذ تخرجك . وما أجده أنا لا يكفي كلانا . لم لا تنزل الى الطريق لتطرق الأبواب بنفسك ! ..

— وماذا اقول . هل أصرح مع دقائق فتى مجتهد للبيع ؟ .

— لا اقول لك افعل هذا يا بني . ولكني ارى انك تملك العلم والشباب وكلاهما يكفل لك الوصول لما تريد .

— ٤ —

... ونزل الفتى الى الطريق . وتحمله ساقاه الى كل مكان . ويقابل بابتسامة مشجعة . قد تجد ما تريد عند الآخرين ... ان ما تريد هو ذلك الذي أعطنا عنه بالجرائد .

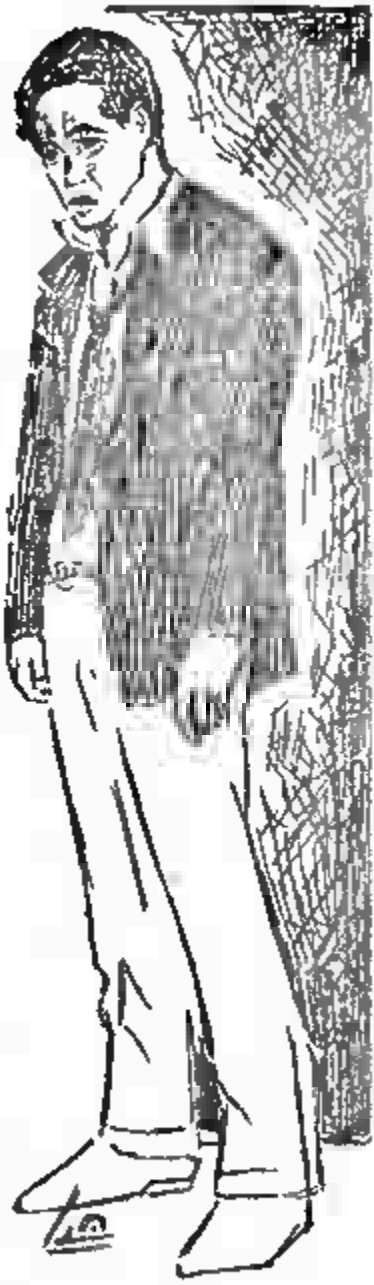

ويتحرك الفتى ، يذهب الى الآخرين ليقولوا له : هند الآخرين .

والحذاء تمله تمزق ، والطريق الذى كانت تسقط فوقه خطواته . ليتحرك فى سهولة ، أحد يلتهب ، ثم يتشبث لاسما بقايا الحذاء والخورب . واكدت الام .

ـ لابد لك من حذاء جديد والا ستشل ساقاك .

ـ من اين ؟ .

ـ من كدك .

همس فى استسلام .

ـ نعم . من كدى ، من كرامتى . من آمالى .

ـ يا بنى اذا اردنا ان نبدأ فعليا ان نضحى ببعض من مظاهر طموحنا .

اما انك فعليا الا تفرط فى ذرة منه .

ـ اذن سأذهب غدا لأتسلم ذلك العمل الحقير . لكن لن استسلم . سأدرس فى فترات راحتى .

وشعر الفتى بأنه يكره قدميه ، والحرار ، وصاحب البيت ، وكل ماديات الحياة التى تدعمه لكل هذه المهانة .

ولم يجد الفتى راحته الا فى البكاء .

- ٥ -

جلس الفتى وامامه آلة حاسبة يدق ازرارها فى رتابة ثم يضغط بطن يده زر عريض فتحرك الاذرع مجمعة رقما كبيرا فى اللوحة الشفافة .

ارقام ضخمة . حبيبات يستطيع ان يشترى بها مراجع ومراجع . آخر الشهر .

حينما امسك بالحبيبات التى وضعوها فى كفه تحررت آماله . وشعر بحنق ومرارة عظيمين " يا الهى . أهكذا يكون كد الانسان بحثا فلا يكفى حتى لسداد مطالب فمه " .

وبلا وعى راح الفتى يقلب الحبيبات بين كفيه وهو يحس بالمهانة ! .

- ٦ -

قالت الأم " يجب ان تحاول العمل أكثر من هذا يا ولدى . فالشتاء على الأبواب . وملابسك كادت تضحى أثمالا " .

وتوسل الفتى حتى استطاع ان يظفر بساعات عمل اضافية تبحر اجرها فى وقفه أمام واجهة احدى المكتبات . وكان عليه ان يستمر فى عمله الجديد بعد أن اشعته لمعات البرد بضرورة شراء حلة جديدة .

فى الليل " كان الفتى ينظر الى ما اشتراه من كتب والحسرة تمزق اعماقه ، والألم يعتصر جسده المكدود ثم يرتمى فوق فراشه وقد شمله قنوط مريع .

- ٧ -

تساءلت الأم ذات صباح قبل ان يغادر البيت " لقد تبتعصفورك يابنى فلم تعد تطعمه . ولقد كاد حزنه يقتله .

اجابها مسرعا وهو يسحب الباب وراءه " ساحضر له طعامه . وان كنت ارى أنه لم يعد يهمنى - فلقد كان مصدر آلامى . ليته يموت . وتمر الأيام " .

والأم تاح " والفتى لا يجد من الوقت ما يسعفه فى اتباع عذاب لعصفوره .

- ٨ -

سأله رئيسه فى العمل عن المراحل التى قطعها فى اعداد رسالته ، وعلل تساؤله بأنه قرأ فى جريدة اليوم ان هناك هيئة كبيرة ستعطى منحة تفرغ للأول الذين سيتقدمون بتخطيط مدروس .

ماتت أعماق الفتى بانقباض قاتم . وخرجت كلماته لا تحمل اسمه ، جواب . مجرد صرخات يائسة !

ـ انها تدفعني دائما من وراء ، انها تصرخ في ، طعامك لا يكفي .

ملابسك لا تلائم ، دائما تصرخ في ، دائما ، دائما فلا اكاد ادرك الى أين أمضي ومضت السنوات ..

وفي طريق العودة مرح الفتى على دكان ليشتري طعاما لعصفوره لكن الدكان كان مغلقا ، فاتجه لبيته ، ولما سأله امه :

ـ الا تتعشى يابني ؟ .

اجاب بانه لا يريد ان ياكل ، فلا ميل به للطعام .

ـ ٩ ـ

حينما أوشك الليل على الانتصاف ، شعر الفتى بحنين جارف لرؤية عصفوره فنهض منه العشاء وفتح باب الشرفة . كانت الريح تعوي ، والرعد يدوي ، والبرق يضيء في ومضات محمومة مرتعشة .

اقترب الفتى من القفص وتحلقت عيناه فلم تر شيئا ، كان الظلام قاتما ، وانتفاضات البرق خامدة .

قرب وجهه من القفص حتى التصق الحديد باردا بجبهته .

ودوى صوت الرعد ، وتألق نور البرق خاطفا ، للحظة لمحت عيناه العصفور وقد ارتمى ميتا على ارض القفص ، وتوجعت أعماق الفتى ، وود بكله لو انه الذي مات ، ودوى صوت الرعد من جديد لكن البرق لم يومض ، وتسمر الفتى يرتعد وسط قتامة الظلام .

ـ ١٠ ـ

من بعيد اتاه صوت أمه متسائلا في قلق :

ـ لم انت مستيقظ للآن يابني ، أنسيت انه يجب عليك أن تصحو مبكرا لتستطيع اللحاق بعملك ؟ .

استدار الفتى عائدا الى حجرته وهو يرتعد ، ثم رفع صوته فخرج مستغيثا كالبكاء :

ـ لا لم انس يا أمي .

وارتمى فوق فراشه فأحس بالوحشة وزادت انتفاضات بدنه ، فمد يده يجذب الغطاء فوقه ، وشعر بالدفء فتمتم متنهدا :

ـ حقا يجب ان استعد لغدي ، كل ما علي ان اغمض عيناي وسأنام .

وانفرش اللحاف فوق الفتى فغطاه ، وبدا الفراش في الظلام مستطيلا من الوسط كقبر بلا شاهد .